دانتى أليجييرى

حيـــــاته وشخصيته

دانتى أليجييرى من أعظم رجال التاريخ . وقد عرف قدره أهل الغرب ، فترجموا مؤلفاته إلى لغاتهم ، ووضعوا عنه مادة غنية من الكتب والشروح والتعليقات . ويقبل كثير من أهل الغرب على تعلم اللغة الايطالية لكى يقرءوا دانتى فى لغته الأولى . ولكنا نحن أهل الشرق العربى لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن دانتى خاصة ، ولا عن الثقافة الايطالية عامة ، وهى تعد من أسس الحضارة الحديثة منذ عصر النهضة . وجدير بنا أن نستيقظ من هذا السبات ، وأن نشارك أهل الغرب فى معرفتهم بالثقافة الايطالية ، وألا نقصر دراستنا على الثقافة الفرنسية أو الانجليزية . ونحن فى هذا الدور من حياتنا أحوج ما نكون إلى التنويع فى معارفنا ، والأخذ عن كنوز الحضارة الانسانية . والعلم ملك للناس جميعاً .

يعتبر دانتى خاتم العصور الوسطى وواضع أساس العصر الحديث على السواء . عاش فى مفترق الطرق ، وتمثلت فيه آثار العصور الوسطى مع تراث العصور القديمة وثقافة العصر الذى عاش فيه . ولا تتمثل هذه التيارات جميعاً فى حياة رجل وشخصيته وفى مؤلفاته ، كما تمثلت فى دانتى .

إن معلوماتنا عن حياته قليلة ، وربما جهلنا كثيراً من التفصيلات ، وواجهتنا فجوات ومتناقضات فى حياته الصاخبة العنيفة . وقد خلق حوله بعض الكتاب جوا من الخيال والأساطير ، وتعسفوا فى دراسته ، وجعلوا منه تمثالا ضخماً . ومع هذا فقد وجد من الكتاب من حاولوا فهمه على حقيقته ، ووصلوا بقدر المستطاع إلى معرفة دانتى الحقيقى الحى ، الذى نطق بحقائق مريرة قاسية عن الأحياء والموتى ، وصور المجتمع الانسانى أصدق تصوير .

ولد دانتى من أسرة طيبة فى فلورنسا عام ١٢٦٥ . وعاش فى حى أرستقراطى

نوعاً . وملكت أسرته بعض الأرض فى الريف . وفقد أمه فى سن مبكرة ، ومات أبوه الذى كان يعمل مسجل عقود ، وهو لم يكتمل بعد دور الشباب . وأحب دانتى بياتريتشى فى سن مبكرة ، وتزوجت غيره وماتت فى شرخ الشباب. وقد أحب غيرها من النساء ، إلا أنها ظلت عنده فى الحياة والممات مصدر الوحى والالهام . واختلط دانتى بالمجتمع الراقى ، واتصل ببرونتو لاتينى وجويدو كافالكانتى اللذين أفاداه فى حياة المجتمع وفى الثقافة . وتلقى دانتى التعليم السائد فى عصره ، واختلف إلى جامعتى بولونيا وبادوا ، وعرف تراث اللاتين وألم بآثار اليونان والشرق القديم ، ودرس تراث العصور الوسطى وثقافة العرب، وعرف الفلسفة والتاريخ والسياسة واللاهوت والطبيعة والجغرافيا والفلك ، والكيمياء . . . كما أدرك آثار الأدب الايطالى الوليد . وكان دانتى يجد لذة كبيرة فى هذه الدراسات المتنوعة ، التى استعان بها على نسيان كثير من المصاعب والمحن التى واجهته . وتزوج دانتى وأنجب بعض أولاد ، وعاش فى أسرته حياة معقولة . ثم أخذ يهتم بمسائل فلورنسا العامة . واشترك فى حرب الجلف أنصار البابا بزعامة فلورنسا ، ضد الجبلين أنصار الامبراطور بزعامة أريتزو فى موقعة كامبالدينو فى ١٢٨٩ . وكان دانتى فى طليعة قوات فلورنسا ، وأبدى شجاعة فى القتال ، وانتصرت فلورنسا .

دخل دانتى فى سلك مهنة الأطباء والمشتغلين بالعقاقير ، وإن لم يمارس هاتين المهنتين . ثم انتظم فى وظائف الحكومة ، وأصبح عضواً فى مجلس السينوريا فى صيف ١٣٠٠ . وأبدى دانتى وطنية واستقلالا فى الرأى فى الوظائف واللجان التى اشترك فيها . كان قد حدث صدام مسلح بين فرعى حزب الجلف من البيض أنصار فلورنسا والسود أنصار البابا ، فاشترك دانتى فى قرار نفى بعض زعماء الجانبين ، ومن بينهم صديقه كافالكانتى ، وغلب دانتى فى ذلك المصلحة العامة على الاعتبارات الشخصية . وحدث أن طلب البابا بونيفاتشو الثامن ، كعادة البابوات من قبل ، أن تقدم حكومة فلورنسا ١٠٠ فارس لخدمة البابا على الحدود التسكانية . فاتجهت حكومة فلورنسا كالعادة إلى إجابة طلب البابا . ولكن دانتى وقف معارضاً الكثرة ، وحاول أن يضم إليه أهل فلورنسا للدفاع عن مصالحهم فى وجه المطامع البابوية . واتسعت شقة الخلاف بين روما وفلورنسا ؛ فأرسلت حكومة فلورنسا وفداً للوصول مع

البابا إلى اتفاق يصون المصالح ، وكان من أعضائه دانتى . واجه دانتى البابا بشجاعة ولم يذعن ولم يسلم بمطالبه . وأخفق الوفد فى أداء مهمته . وكان البابا قد طلب إلى شارل دى فالوا الأمير الفرنسى أن يسير إلى فلورنسا لكى يعيد إليها السلام . ووصل شارل وانضم إليه أعوانه من حزب السود ، وهزم البيض المخلصون لقضية فلورنسا . وشوهد الخوف والجبن والخنوع ، والتحول السريع لارضاء السيد الجديد ، وسيطر السود على الموقف ، وصدرت أحكام للتنكيل بالمعارضين ومن بينهم دانتى . اتهم دانتى فى يناير ١٣٠٢ بالغش والسرقة وباستخدام سلطة وظيفته فى ابتزاز أموال فلورنسا ، وصودرت أمواله ، وعزل من الوظائف ، وفرضت عليه غرامة ، وتقرر نفيه من فلورنسا مدة سنتين ، وطلب إليه أن يحضر أمام الحكومة فى زمن وجيز ، فلم يستجب دانتى ، فصدر عليه بعد قليل حكم يقضى باحراقه حيا إذا ماوقع فى يد حكومة فلورنسا . كان ذنبه الحقيقى أنه عارض البابا بونيفاتشو وحاول الدفاع عن مصالح وطنه ، فلقى جزاء ذلك حكم النفى والقتل ، وحرم عليه أن يرى وطنه إلى الأبد ، الشئ الذى هو بمثابة نصف الحياة لمن له قلب .

اتصل دانتى بالمنفيين من فلورنسا ، الذين حاولوا أن يتجمعوا ويهاجموا فلورنسا . ولكن دانتى وجد أن هؤلاء المنفيين يسودهم الاضطراب وتعوزهم الوحدة اللازمة للنجاح ، فنأى عنهم وجعل من نفسه حزباً هو العضو الوحيد فيه . وبعد سنوات لاحت بارقة أمل أمام دانتى للرجوع إلى وطنه ؛ إذ قدم إلى إيطاليا هنرى السابع إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبدا أنه سيحقق السلام العالمى . كتب إليه دانتى وقابله داعياً إياه إلى تخليص إيطاليا من ويلات الصراع الداخلى ، و إلى تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية . قام هنرى ببعض المحاولات السياسية والحربية ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء على فلورنسا ، ومات هنرى فى ١٣١٣ ، وأخفقت فكرة الامبراطورية . وبعد قليل كان من المحتمل أن يعود دانتى إلى فلورنسا ، إذ وافقت حكومتها على رجوعه بشرط أن يعود معتزفا بالخطأ وتائبا يطلب الصفح والغفران . فرفض دانتى هذا العرض وقال إنه لن يعود إلى فلورنسا أبداً ، و إنه سيرى الشمس والقمر والكواكب خارج جدرانها ! فحكمت عليه فلورنسا بقطع رأسه إذا وقع فى يديها ، فى الوقت الذى كان لا يزال يأمل فيه أن تضع فلورنسا على رأسه إكليل الغار .

قضى دانتى سنوات طويلة فى حياة المنفى ، وعاش بعض الزمن فقيراً مشرداً وجاع وطلب المأوى ، وما كان أشق على نفسه أن يرتقى سلالم الناس طلبا للقوت ! وما كان أشد ما يجد من مرارة فى الآخرين . استيقظ دانتى وقد خدعه السراب الجميل ، ورأى العالم على حقيقته . وأحس نفسه وحيداً مخفقا . وشعر بمرارة الهزيمة ، وفقد الأهل والأصدقاء والمال والوطن . وعومل معاملة اللصوص والمرتشين والشحاذين ، وسخر منه أهل فلورنسا . وكان سفينة بغير شراع تدفعها الريح العاتية من شاطئ لآخر ، ولسعت ألسنة النار أضالعه ، وأصبح روحاً غاضباً داخل هيكل هش . ولم يبق فى يده سوى حفنة من رماد . ولكن هذا الجزاء القاسى الذى لقيه ، وتلك الآلام والمحن التى انصبت عليه ، كانت عنده بوتقة العبقرية . فقد دانتى كل شئ ، ولكنه كشف عن خبيئة نفسه . وبعد أن منى بمرارة الهزيمة ووحشة الحياة ، وبعد أن عاش بين الظلم والأحقاد والمطامع وحقارة النفوس وضعة الأصول ، أحس بحاجته إلى أن يجيب على ذلك كله بالخلق والابداع . وعمل ليل نهار ، وضرب وطرق ، وكتب ثم مزق الورق ، وتصبب منه العرق ، وبكى ، ونفث روحه فيما كتب . وبذلك خلق الكوميديا ، وانتقم لنفسه الأبية العزيزة المتكبرة ، المثخنة بالجراح .

انتقل دانتى فى شمالى إيطاليا ، ولقى أحياناً الترحاب وحسن الوفادة عند الأمراء والنبلاء ، وعمل سكرتيراً ونديما ودبلوماسيا لكى يكسب القوت . ولكنه لم يستطع دائماً أن يمضى فى خدمة الأمراء والأغنياء فكان ينأى عنهم . وعاش بعض الوقت فى فيرونا ومانتوا ، واستقر به المقام أخيراً فى رافنا ، حيث لقى الترحاب عند أميرها جويدو نوفلو . وقام فى آخر حياته بسفارة بين رافنا والبندقية لازالة بعض أسباب الخلاف بينهما . وفى طريق العودة أصيب دانتى بالملاريا ، ولم يتحمل جسمه المرض فمات فى سبتمبر ١٣٢١ ، ودفنته رافنا باحتفال لائق وكرمت ذكراه وأقامت له نصبا .

بعد وقت غير طويل أدركت فلورنسا ما ارتكبته فى حق ابنها العبقرى ، وأرادت أن تكفر عن خطيئتها ، فعهدت إلى بعض الأساتذة ومن بينهم أحد أبناء دانتى ثم بوكاتشو فى إلقاء محاضرات عامة عن دانتى وآثاره ، وطبعت كتبه وتداولها الناس ، وجرت أشعاره على ألسنة الناس ، وتغنوا بها ، وكشفوا فيها عما خالج نفوسهم واضطرم بين جوانحهم . وحاولت فلورنسا أن تنقل

جدث الشاعر لكى تدفنه فى وطنه باحتفال مهيب . ولكن رافنا عارضت أشد المعارضة . وبذلت فلورنسا جهوداً طويلة فى ذلك السبيل . وتوسط البابا وسعى ميكلانجلو فى ذلك ، ولكن بغير دون . وخشى أهل رافنا أن تنجح جهود فلورنسا فى المستقبل للحصول على جدث دانتى ، فأخفاه أحد القسس فى مكان مجهول ، ولم يكشف عنه إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وشيدت فلورنسا قبراً رمزيا لدانتى فى كنيسة الصليب المقدس ، مكون من تابوت فارغ ، يعلوه تمثال جالس لدانتى وقد توج رأسه باكليل الغار ؛ وعلى يمين التابوت تمثال سيدة ترمز إلى إيطاليا ، التى تشير إلى الكلمات المحفورة بأسفل تمثال دانتى قائلة « مجدوا الشاعر الأعظم » ، تلك الكلمات التى قالها دانتى فى فرجيل ، وأرادت فلورنسا أن تقولها الآن فى دانتى . وعلى يسار التابوت تمثال سيدة أخرى ترمز إلى فلورنسا ، وهى منحنية محلى التابوت تبكى ، وستظل دائماً تبكى ، جزاء ما ارتكبت فى حق ابنها البار من نكران للجميل .

إن شخصية دانتى من الشخصيات النادرة . وإذا ما قلبناها على وجوهها واوليناها بالبحث والدراسة ، وجدنا فى ثنایاها ما يبعث على التأمل والتفكير ، وما يثير فى النفس الاعجاب والتقدير ، ولقينا فى تفصيلاتها مرآة الحياة وصورة الانسان العبقرى .

كان دانتى رجلا متعدد الملكات ، وتبدو عليه مصاهر التعارض : كان يختلط بجماعات الشباب المرح ويسخر ويغنى ويعزف الموسيقى ويبكى ويقول الشعر ويرسم ، ويزهد فى الحياة ويتمتع بالملذات ، ويبدو خجولا وديعاً صامتاً ، ومع ذلك فهو جرئ شجاع لا يرهب شيئاً . يبدو أحياناً وثنيا وأحياناً مسيحيا ، وتارة بابويا وأخرى إمبراطوريا . والمرأة عنده نصف إلهة تقوده إلى الفضيلة وإلى الله ، وهى أيضاً صخرة أذلت كبرياءه وقادته إلى الشيطان . ويبدو فى أوقات كثيرة صارم المظهر جدى الملامح ، ويلوح شامخاً متكبراً مشغولا بأفكار عالية ومسائل خطيرة . كان يحارب ويشتغل بالسياسة ويقضى الساعات الطويلة عاكفاً على القراءة والدرس ، فاذا ما تعب خرج إلى أحضان الطبيعة الساحرة ، فنظر إلى السماء الصافية وإلى السحاب المتغير وإلى المرج الأخضر ، وجلس تحت الشجرة العالية وقطف الأزهار الجميلة ، والتهم الفاكهة الناضجة وارتشف النبيذ المعتق ، وعطف على الأطفال والمرضى والمحتاجين ، ونظر فى

الصباح إلى نوافذ الحسناوات وترقب العذارى فى الكنائس . إن ما يبدو عليه من التعارض ما هو إلا مظهر خارجى . والعباقرة فوق التقسيمات والتعارض وتتعاون آراؤهم وثقافتهم و إحساساتهم على خلق عبقريتهم . هذه الاتجاهات المتنوعة موجودة فى الحياة الواقعة ، وهى من خصائص النفوس الغنية الخصبة . فى دانتى عنصر من كل شئ ، وجمع فى ذهنه الماضى والحاضر والمستقبل ، واستطاع أن يجعل من نفسه ومن آثاره رمزاً رائعاً للبشرية كلها .

امتاز دانتى بالكبرياء ومدح النفس . كان معتزا بنفسه إلى درجة تجعله لا يكاد يحقد على الآخرين ، وارتفع إلى المستوى الذى جعله لا يرى فى البشر ما يحسدهم عليه . وكل رجال الفن الذين أهينوا وجرحت نفوسهم ، عملوا لتأكيد ما منع عنهم ، وكسبوا ثقة هائلة بنفوسهم واعتزوا بملكاتهم ، وأعلنوا عنها بالقول والعمل والابداع . وكأن الفنان يقول لمن أساءوا إليه : إنكم لا تريدوننى ولا تقدروننى ، و إنى أبدو أمامكم شخصاً نكرة ، وليس عندى مال ولا سلطان ولست من أسرة بارزة ، ومع ذلك فسيأتى اليوم الذى ترغمون فيه على تقديرى وتسعون إلى سعياً ، وسوف أقوم بخلق ما تعجزون عنه جميعاً ، وتدركون أى رسالة انطوت عليها نفسى . هكذا أحس دانتى عندما عاش فى المنفى وعندما أخفق وجاع وطلب المأوى ، وعندما أخذ يكتب الكوميديا . أحس دانتى بعدم التناسب الهائل بين عبقريته وبين حياته الواقعة . وأخذ يمدح نفسه بنفسه ، و إن كان قد اعترف بأن ذلك لا يرضيه كل الرضا . قال دانتى إنه نابغة ، و إن أسلوبه الجميل يضعه فى مستوى هوميروس وفرجيل ، و إن كلماته ستصبح غذاء للناس ، و إنه صلب لا يعبأ بالمصاعب ، و إنه يتشرف بحياة المنفى ، ونعت الكوميديا بالمقدسة ، وسمى نفسه بالحمل وسط الثعالب ، كما تكلم عن شجاعته فى معركة كامبالدينو . كان دانتى يطمع فى أن تتوجه فلورنسا بتاج الشعراء . وبدا كأنه نبى أعزل وملك بغير عرش . كان يحس أنه أعلى من الملوك والبابوات الذين عجزوا عن أداء واجبهم وأصبحوا لا يصلحون للقيام بالمهام الخطيرة التى ألقيت على كواهلهم المتداعية . تكلم دانتى كامبراطور وبابا ، ولعن البابوات والملوك . وتكلم باسم إيطاليا والعالم . فعل ذلك لايمانه المطلق بأنه شاعر عبقرى ، واعتبر أن مجد الشعراء أعظم من مجد الملوك والبابوات . واعتنق رأى أرسطو القائل بسيادة من له

التفوق العقلى . وجعل نفسه مساوياً للقديسين . وأراد فى الكوميديا أن ينير السبيل أمام الانسانية ، وأن يضع كتاباً مقدساً جديداً يعلم البشر .

امتاز دانتى بحساسية مرهفة ، جعلته شديد التأثر قادراً على البكاء حتى يفقد الوعى . وعنده غرفة الدموع . ويقول إن البكاء يجعله هشا متهالكا لا يكاد يعرفه أحد ، ومن فرط الحزن يتحرك رأسه كأنه شئ ثقيل لا حياة فيه ، وتتعب عيناه من البكاء حتى تعجزان عن البكاء . بكى عندما أحب بياتريتشى ، وبكى عندما فقدها بسرعة . وعندما تقدم فى السن لم ينقطع عن البكاء ، فكان يبكى فى كهولته كما يبكى الطفل . وبكى عندما أهين شرفه ، وعندما جاع وطلب المأوى ،وعندما عجز عن تحقيق أمانيه . وبكى بكل حواسه عندما كتب الكوميديا . يبكى باولو فى الجحيم ولا يتكلم ، فكان بكاؤه هو الكلام . وبكى دانتى عندما شارك المعذبين فى آلامهم . وبكى عندما عاتبته بياتريتشى فى الأعراف . استخدم دانتى حساسيته المرهفة ودموعه المنهمرة فى خلق الكوميديا . والبكاء ميزة ونعمة . ولا يمكن أن يكون البكاء غير جدير بالعظماء . وما أقسى بكاء الرجل المتكبر !

أما الحب عند دانتى فهو الحياة . وما كان يستطيع أن يعيش بغير الحب . أهم حب عنده هو حب بياتريتشى . أحبها فى سن مبكرة . ولم تبادله الحب . لم تستطع بياتريتشى أن تشاركه فى شعوره لحسن الحظ . ولم تقدر هذا الشاب النحيل المرهف الاحساس المنهمك فى دراساته ، والذى لم يكن من أسرة بارزة ذات جاه أو سلطان ، ولم تتكهن بالمصير العظيم الذى ينتظره ، وسخرت من صدقه وإخلاصه ، وكانت تتقول عليه مع أترابها من بنات الأسر الأرستقراطية . كانت بياتريتشى تعقل الألسنة عندما تحيى الناس بايماءة من رأسها ، ولا تجرؤ الأعين على النظر إليها ، وتبدو كأنها ملك جاء من السماء إلى الأرض لكى يفعل العجائب . قال دانتى فى الحياة الجديدة إنه سيقول عنها ما لم يقله رجل فى امرأة من قبل . وقد بر دانتى بوعده . بعد حياة المنفى والجوع والتشرد لم يجد أمامه سوى ذكرى الشباب السعيد ، وبدت أمامه بياتريتشى كنجمة الصبح فى صحراء الحياة ، فهى تهب لنجدته فى الكوميديا وترسل إليه فرجيل وترجوه أن يسارع لانقاذه من الصعوبات التى اعترضت طريقه . ويذكره فرجيل بها دائما ، لكى يشجعه

على اجتياز الجحيم والأعراف . وتبدو بياتريتشى لدانتى فى الأعراف امرأة مكتملة ناضجة . وتندد به لأنه كان فى شبابه يمتاز بالصفات النبيلة والعادات الطيبة ، ثم انحرف عن السبيل القويم واتبع الهوى . وتعنفه لأنه خانها وأحب نساء أخريات . يصورها غاضبة ثائرة كما رسمها ضاحكة مسرورة . يقول إن عينيها الضاحكتين ألقتاه فى أفكار متلاحقة ، وإن ابتسامتها جعلته سعيداً وهو فى النار ، وإن كلماتها ضاحكة وصوتها ساحر يصدح كآلة موسيقية . وهى امرأة ممشوقة القوام فارعة القد تنظر إلى الأفق فيضطرب عند مرآها . وهى تطهر نفسه من أدران الجسد وتلهبه بنيرانها وتقوده فى السموات ، وتجعله قادراً على رؤية الله . وبذلك تحيله إلى عابد متصوف عاشق يقترب من المحب الأول .

ومع هذا فقد أحب دانتى غيرها من النساء . بكى دانتى عندما ماتت بياتريتشى ، ولكنه كان فى حاجة ملحة إلى الحب . التقى عن طريق دموعه بغيرها من النساء . ولا شئ يؤدى إلى الحب كما تؤدى الدموع مع الدموع والزفرات مع الزفرات . يقول عن فيولتا إنها جعلته يتشوق ويتنهد عند مرأى الورود . وأحب المرأة الصخرة وارتمى تحت قدميها ، وظلت باردة أمامه كالصخر الذى يغرقه فى أعماق البحر بعد النوء الشديد . وكان دانتى بذلك يعشق الجمال أينما وجد ، ويستجيب لنداء القلب . وما قلبه إلا جزء من الطبيعة يطير مع الرياح ، ويهيم مع النسيم ، وينساب مع منحدرات المياه ، ويشارك الثلج فى نصاعته فوق قمم الجبال العالية ، ويستيقظ مع الربيع الضاحك المزدهر .

كان دانتى شجاعاً جريئاً لا يرهب شيئاً فى الدفاع عن رأيه ووطنه . عارض سياسة بونيفاتشو الثامن وحاول الدفاع عن مصالح فلورنسا . وضع دانتى نفسه بذلك أمام قوة هائلة ما كان يستطيع إنسان أن يقف فى سبيلها . ولم تكن هناك مقارنة بين قوة الرجلين فى الجسم . ومع ذلك فقد وقف الرجلان وجهاً لوجه ، ونظر كل منهما للآخر محاولا تغليب فكرته . وقف البابا غاضباً متكبراً ، ووقف دانتى جريئاً شجاعاً . قال البابا : «لماذا أنتم معاندون ؟ اخضعوا لى ، إننى لا غرض لى سوى توطيد السلام فى فلورنسا . » ولكن دانتى كان يعرف أنه يريد توطيد السلام البابوى ، فلم يسلم ولم يذعن . تشابه الرجلان فى الصلابة والقوة والطموح والكبرياء ، ولكنهما اختلفا

فى كثير من التفصيلات . كان بونيفاتشو رجلا قويا بمركزه وسلطانه غنيا بالذهب ، وحوله الأمراء والنبلاء ، فى حين لم يكن لدانتى ثروة ولا مركز ولا سلطان على الأمراء . كانت قوة دانتى لا تزال خافية فى قلبه وعقله وفنه . أراد بونيفاتشو أن يسيطر على الملوك والأمراء ، على حين سيحكم دانتى فى عليائه على الملوك والأباطرة والبابوات . وكان كل منهما خياليا : أراد بونيفاتشو أن يحقق المثالية الدينية التى تنتهى إلى شخصه ويجعل فى يده السلطة الدينية والزمنية على السواء ، على حين كانت مثالية دانتى ترمى إلى جعل الامبراطور صاحب السلطة الزمنية والبابا صاحب السلطة الدينية . وشعر كل منهما أنه ملهم من الله ، بونيفاتشو كبابا ودانتى كشاعر . واحتقر بونيفاتشو رجل الدين والسياسة والمال صفة الشاعر فى دانتى . ولم يعترف دانتى للبابا المرتشى بصفته الدينية . لم يعترف دانتى بغير قوة الروح والفن . واحتفظ كل منهما بصفات موطنه . فامتاز بونيفاتشو بالجفاف والصرامة والغلظة والتعصب السائد فى رومانيا ، على عكس دانتى الذى امتاز بصفات الفلورنسى رجل الأدب والثقافة والذوق والفن . وكذلك اختلف الرجلان فى المظهر ، فكان بونيفاتشو شيخاً فوق الستين ، ملىء الجسم طويل القامة ، فى حين لم يتجاوز دانتى السادسة والثلاثين ، وكان ذا قامة متوسطة وجسم نحيف . على أن كليهما امتاز بجبهة عريضة وعيون براقة لامعة . واتهم الاثنان بالرشوة والاختلاس ، وإن كان بونيفاتشو وحده هو المتهم . ولم يتصور البابا أن دانتى سيضعه فى الجحيم وسيقول عنه إنه القسيس الأعظم ويأنه مغتصب الكرسى البابوى وبأنه رجل جشع منافق . هكذا وقف دانتى أمام بونيفاتشو بعزم لايلين وشجاعة لا توصف . ولقى دانتى جزاء ذلك النفى والفاقة والتشريد ، ثم كسب الخلود .

ونجد دانتى ساخطاً أشد السخط على المجتمع الذى عاش فيه . وكثيرا ما بدا له العالم مليئاً بالأخطاء وخلواً من كل فضيلة . واعتبر أعمال أكثر الناس تؤدى إلى انهيار المجتمع . حتى أعمال الملوك ورجال الدين أثارت فى نفسه السخط والاشمئزاز . اعتبر دانتى الرجال متغيرين متقلبين . وهم حيوانات بهيمية وأشبه بالموتى . والمبشرون والوعاظ حيوانات ، والقسس يملأون بطونهم ، والبابا متهم وخارج عن تعاليم الكنيسة . والايطاليون لصوص سفلة وعبيد

أذلاء . والفرنسيون متغطرسون والأسباب بخلاء . . . وبذلك لم يكد شئ يرضيه فى زمانه . والحاضر عنده شر وفوضى ومدعاة للخجل . وكان دانتى يتطلع إلى ملجأ آمن فى زوايا الماضى وثنايا المستقبل . لم يرض عظماء الرجال عن الواقع لأنهم أدركوا باحساسهم المرهف ما لم يدركه الغير . ورأوا بعيونهم الصافية ما عجز أهل العصر عن رؤيته . وليس من الانصاف أن نعتبر دانتى متشائماً . هو فوق التشاؤم والتفاؤل . وجهلاء أولئك الذين ينقدون الساخطين على المجتمع . إنهم يريدون أن يرضى العظماء بما يقنعون هم به . لم يكن سخط دانتى تشاؤماً ويأساً من الحياة ، ولكنه كان حافزاً للاصلاح والتغيير . وسيحاول دانتى التأثير فى الناس عن طريق الشعر الرائع والفن الرفيع .

والوطنية من صفات دانتى الواضحة . كثيراً ما تكلم عن إيطاليا : عن مدنها وقراها وأنهارها وجبالها وكنائسها وأبراجها وأهلها . وأعطى صورة جغرافية لكثير من أماكنها ، وحدد ارتباط الأشخاص بتلك الأماكن . ولم يحب دانتى مكاناً فى الأرض كما أحب إيطاليا وفلورنسا خاصة . فايطاليا عنده حديقة الامبراطورية ومركز العالم . وفلورنسا هى الوطن النبيل والمدينة العظيمة على نهر الأرنو الجميل . وهى المكان الجميل الذى نام فيه كالحمل . ومع ذلك لم يتكلم دانتى بقساوة وعنف كما تكلم عن فلورنسا وإيطاليا . قال عن فلورنسا إنها غابة حزينة بائسة ، وإنها مليئة بالحسد والكبرياء والبخل ، وحكومتها سيئة مضطربة ، وأهلها لصوص ووحوش ، وقد أحبوا الذهب إلى درجة أن فلورنسا أصبحت جديرة بأن تسمى مدينة الشيطان . ويقول إن نساء فلورنسا الفاجرات يخرجن ولا حياء لهن لاغراء الناس ، بابراز أثدييهن التى يجب أن تحفظ لارضاع أبنائهن الأبرياء . وعندما أخفق الامبراطور هنرى السابع أمام أسوارها ازداد غضب دانتى ، ونعتها بذئبة الأرنو وبالأفعى وبالعنزة المريضة . وكذلك لعن دانتى كثيراً من أنحاء إيطاليا . فلا يكاد يوجد بها مكان إلا يثير غضبه ويفتح فى جسمه جرحاً قديماً . أرض إيطاليا ملأى بالأشواك والعواصف والجرائم والآثام . وهى الأرض الخائنة الخبيثة الحسود العاصية . يقول إن لوكّا مليئة بالمزيفين ، وبستويا موطن الوحوش ، وأهل بيزا ذئاب ، وبولونيا ملأى بالبخلاء والوصوليين ، وأهل جنوا خلو من كل كياسة ويستحقون الاذلال .

لم يوجد من لعن شعبه كما فعل دانتى . و إن من يلقى هذه اللعنات لابد أن يكون قد تألم كثيراً فأفرغ ما فى نفسه . والسباب واللعنات فن جميل ولغة عنيفة كان ينهمها الشعب الايطالى صاحب العواطف الحارة والتعبيرات العنيفة . ولا تدل اللعنات دائماً على السفه والبذاءة بقدر ما تدل على الحب والحرص على المصلحة . ولم يكره دانتى فلورنسا و إيطاليا ، بل هو على العكس كان حبه لها أعظم من أن يحمله على الوقوف أمام أخطائهما موقف المتفرج المحايد. أحب بلاده وأساءه ما كانت عليه من الفوضى والانقسام ولم يستطع السكوت على ما كانت تعانيه . استمد دانتى من ويلات إيطاليا ونكباتها وحياً لشعوره الوطنى الصميم ، وصدرت عنه روح وطنية عالية فى سبابه ولعناته . خاطب دانتى إيطاليا بلفظ إيطاليا . وربما كان أول من أدرك قيمة وحدتها السياسية. قال : « يا إيطاليا ! أيتها العبدة الذليلة ، ياسفينة بغير شراع وبغير ملاح وسط العاصفة الهوجاء . أنظرى إلى سواحلك وأطرافك واجمعيها إلى صدرك . أيعرف أى جزء من جسدك معنى السلام واهدوء؟ » وخاطب الله طالباً الصفح والمغفرة ، وسأله هل أدار نظره عن إيطاليا ، وماذا يخبئ لها فى طيات المستقبل من الأحداث ؟ بهذا أصبح دانتى نبى إيطاليا ، وأعطى وطنه حلماً سياسيا مستمدا من الواقع ومن غير الواقع ، من الماضى ومن المستقبل ، من الدموع والأسى والزفرات الممتزجة بالأمل والرجاء . وظلت صيحاته تجرى فى دماء الايطاليين ، وأصبحت كلماته بمثابة إنجيل الوطنية الايطالية فى القرن التاسع عشر .

إن دانتى قمة شاهقة مشرفة على البشرية من عليائها خلال القرون . إنه كالمارد بين الأقزام من البشر . إنه نار ونور . إنه حى خالد . إنه أكثر حياة من أولئك الموتى الذين يظنون أنفسهم أحياء وما هم بأحياء .

حسن عثمان